ترجمات | قسم الدراسات الدينية | 24 نوفمبر 2020

العنف باسم اللّه

بيار كونيسا
ترجمة: عبد الرزاق القلسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020

العـنـف باسـم اللّـه[1]

بيار كونيسا (Pierre Conesa)

ترجمة: **عبد الرزاق القلسي**[2]

1- العنوان الأصلي للمقال هو: (**La violence au nom de Dieu**)، وهو منشور في:

La revue internationale et stratégique; n 57; printemps 2005; pp: 73-81

2- باحث ومترجم تونسي، حاصل على الماجستير في منهجية التحليل للشعر والأدب، متخصص في منهجيات دراسة الأدب القديم والحديث.

لا نعثر في القائمة التي وضعتها وزارة الخارجية الأمريكية سنة 1980 على أيّة منتظمة إرهابية ذات خلفية دينيّة، غير أنّه في سنة 1998 كانت نصف التنظيمات، وعددها ثلاثون، محسوبة على التنظيمات الدينية. أمّا في سنة 2004، فثلثا التنظيمات الإرهابية ذات خلفيّة دينيّة. وهذا دون أن تُحتَسب تلك المنظّمات الدينيّة الأمريكيّة الأصل، والتي هاجمت في أرض أمريكا مراكز الإجهاض، أو قامت بهجمات ذات طبيعة عنصرية أو معادية للسامية، وخاصة تلك الهجمات التي طالت أوكلاهوما سيتي يوم 19 أبريل 1995[1]، ثمّ تلك التي تعلّقت بالألعاب الأولمبيّة في أطلانطا سنة 1996.

لقد تفاقم العنف الإرهابيّ ذو الخلفيّة الدينيّة في غضون عقد من الزمن، ومسّ أغلب أديان العالم، وهو ما يثير الخوف حقّا؛ ولكن ما يجلب الانتباه أيضا هو هذه الهجمات الإرهابية التي تبدو «مشروعة» أو مسنودة من حكومات بصرف النظر عن المبرّرات التي تساق هنا وهناك... وفي هذا المقام تخصّص المجلّة الدوليّة الاستراتيجيّة ملفّا في هذا الغرض.

الهيئة الجديدة للتطرّف الديني

تبدو لنا العودة إلى المعتقدات الدينيّة ظاهرة شائعة، وقد نشأت هذه الحركة بفعل الأزمة التي طالت الحداثة وعن المخاوف التي تولّدت من العولمة؛ ومن تلك الاحتجاجات التي رافقت استيراد أنظمة سياسية من الغرب، أو تلك النماذج السياسية التي احتُفِظ بها على الرغم من حركات مقاومة بقايا الاستعمار. وتكتسي هذه العودة أشكالا وأصولا متنوّعة موسومة بقدر كبير من التشدّد الذي يحيل على جذور لاهوتية أسطورية تدعو إلى صيغ مشروعة من العنف.

وفي هذا الصدد، فإنّ الحوار مع أودون فاليه، وهو المختص في الأديان، ينزّل هذه المسألة في إطارها العام. ففيما يتّصل بالعالم الإسلامي، فإنه إذا ما كانت الثورة الإيرانية قد شهدت ولادة الإسلام السياسي بوصفه الشكل الأحدث لانبثاق الديني من صميم الإسلام ذاته، فإنّ هذه الظاهرة لا يمكن قطعا أن تُختزل فحسب في الأنموذج الإيراني. ففي العالم العربي الإسلامي، كان خطاب التحديث العجول قد أسهم سابقا في نشأة أنظمة استبدادية لم تفلح الأحزاب التقليدية في إصلاحها، وكان الغرب - فيما مضى - يدعمها في سياق الحرب الباردة، والآن في سياق «الحرب الشاملة ضدّ الإرهاب».

إنّ الاحتجاج ضدّ هذه الأنظمة المتسلّطة قد استمد مشروعيّته من إعادة النظر في هذه القيم التي نشأت من الحداثة المتماهية مع هذه الأنظمة المتحكّمة في رقاب الناس، ومن بين هذه القيم يمكن أن نذكر منزلة

1- الحصيلة البشريّة لهذا الاعتداء تتمثل في 168 قتيلا منهم 16 طفلا.

المرأة في المجتمع والجدل حول العلمانية. هذا بالإضافة إلى اتخاذ الإسلام بوصفه أداة لمقاومة الاستعمار، وهو ما كانت الأنظمة السائدة في الحكم تعتمد عليه، وتستمدّ مشروعيّتها منه. كلّ ذلك قد سمح بولادة إسلام منشقّ عن البُنى الرسميّة. وأخيرا، يمكن أن نذكر فشل الأحزاب التقليديّة التي خيّبت آمال أنصارها، وهو ما جعلهم يُوَلُّون وجوههم شطر الحراك الديني؛ فتحليل الباحث قادر عبد الرحيم قد نزّل موضوع تمرّد الحركات الإسلامية منزلتها من منظور تاريخي.

وليس العالم الإسلامي فحسب معنيّا بمثل هذه ظاهرة على نحو خاصّ، ففي إسرائيل كان انتصار حرب الأيّام الستّة دافعا لنشأة «صهيونية خَلاصّية» تهب المبرّرات لرؤية إسرائيل الكبرى، ولاستعمار القدس ومصادرة الأراضي الفلسطينية من قبل مناضلي ما يطلق عليهم بـ «حزام الإيمان»، كما أنّ أزمة المشروع الصهيوني الذي سهر على نشأته حزب العمّال الإسرائيلي قد حملت معها إلى النفوذ السياسي جماعاتٍ وأطرافًا تتبنّى تصوّرا يسمح بإقحام الدين في الشأن السياسي. وفي هذا الصدد، فإنّ مقال الباحث براح ميكائيل يرسم نشأة هذه التيّارات الدينيّة التي لا يعرفها الكثيرون في فرنسا.

أمّا بالنسبة إلى الدول الشيوعية والاشتراكية، وبعد عقود من الحراك العلماني، فإنّ الأحزاب الدينية قد أيّدت خطاب الانشقاق القمعي (الذي كانت تدعو إليه الأحزاب الشيوعية) لكي يكون هذا الخطاب من خصائص الكيانات المقاومة، وهذا ما تجلّى في نقابة «تضامن» في بولونيا. أمّا في الدول الديمقراطية ذات التراث المسيحي، فإنّ تضاعف الطوائف الدينيّة يعبّر عن عملية الإحياء الديني مع ما يحمله ذلك من ريبة إزاء الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا والكنيسة في الولايات المتّحدة. ففي الجانب الآخر من الأطلسي كان الاتجاه الديني لِمَا يُسمّى بـ «الهويّة المسيحيّة» للمسيحيين الإنجيليّين[2] قد استطاع الارتقاء إلى الحكم مع انتخاب جورج بوش.

وفي الهند مع حزب «جاناتا» وجماعة «راشتيريا سوايامسفاكنانغ»، وفي اليابان مع طائفة «أوم شيرنيكيو»، وفي الصين مع طائفة «فالونغونغ»، كلّ هذه الطوائف كانت طرفا في الغليان الديني. وقد أفرد الباحث الأمريكي جان ميشال فلانتين للحالة الأمريكية بحثا مستفيضا. أمّا في إفريقيا، فإنّ دولا مثل الكوت ديفوار ونيجيريا ورواندا وغيرها من الدول، كتلك التي كانت تنتمي إلى الاتحاد السوفياتي السابق، فإنّ الأزمة لديها تتجلّى - وهي التي خطّ الاستعمار حدودها - في عودة المطالب العرقية التي يكون العامل الدينيّ فيها عاملا مؤثّرا ولا يستهان به.

2- راجع: Barbara Victor, *La dernière croisade. Les fous de Dieu version américaine*, Paris, Plon, 2004.

على أنّ هذا الإحياء الديني يتّخذ أشكالا مخصوصة؛ لأنّه يتنزّل خارج الأطر الرسمية للكنيسة وللتراتبيات الرسمية سواء في أمريكا أو في العالم العربي، حيث سيتّبع المولودون مسيحيّين أو المولودون مسلمين دعاةً نصّبوا أنفسهم للدعوة من تلقاء أنفسهم، وهذه العودة للديني تتنزّل في سياق المجال الهووي والسياسي وتتلبّس ببعد احتجاجي عنيف إلى حد مّا يتجلى بصيغ مختلفة، وهو ينبثق في الأصل في تلك الدول ذات التعدّد العرقي، وتشهد في هذا العصر أزمة بما يهب لهذه الأزمة بعدا دوليّا، وهذا ما نراه في لبنان وفي يوغسلافيا السابقة وفي سيريلانكا والفيليبّين والكوت ديفوار. كما أنّ هذه الأزمة تطال تلك الدول ذات التعدّد الطائفي: بين السُنّة والشيعة في باكستان وفي السعودية وفي العراق، عنف بين الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا الشماليّة. ويجدر بالذكر في هذا المقام، أنّ هذا العنف يطال تلك الدول التي تكون شعوبها على دين إسلامي واحد، مثل سوريا وتونس وأفغانستان والمملكة السعودية ومصر وتركيا... إلخ.

إنّ الاستراتيجيات السياسية تبدو في الغالب متماثلة، وهي تنهض على التداول بين التمدّد «نحو الأسفل» عبر الممارسات اليوميّة والحوارات في شؤون المجتمع والجمعيات مهما كان نوعها[3]، أو من خلال الحراك الفردي لهؤلاء الناشطين الجدد، أو من خلال التمدّد «نحو الأعلى» عبر تركيز طوعيّ لمؤمنين بين أجهزة الشرطة والعسكر والقضاء أو عبر ممارسة ضرب من التشظّي الداخلي للأحزاب السياسية الدينيّة والمتطرّفة. إنّنا نلاحظ هذه المسلكيّات سواء لدى حزب جيناتا الهندي أو لدى حركة غوش أمونيم الصهيونية، بل إنّ جورج بوش - وهو الذي يرى نفسه إنجيليّا مسيحيّا - يسمّي في منصب وزير العدل جون إشكروفت المعروف بتديّنه الشديد.

ومن هنا فصاعدا، تبدو الانزياحات العنيفة لهذه الجماعات الدينيّة متواترة بنسب عالية. وفي هذا الصدد، كانت جماعة أوم شنكاريو اليابانية أوّل من نظّم هجوما بأسلحة غير تقليدية بغاز السارين في مترو طوكيو، فيما كان تيموتي ماكفيل - وهو المناضل من أقصى اليمين المستلهم من «الهوية المسيحية» - صاحب أوّل هجوم ساحق في أوكلاهوما سيتي بأمريكا. أمّا في هجمات 11 سبتمبر 2001، فإنّ أسامة بن لادن يكون قد دشّن ما يمكن تسميته بـ «الإرهاب الأعلى». وفي إسرائيل عمد إيغال الى اغتيال اسحاق رابين فقط؛ لأنّه أمضى على اتفاقيّات أوسلو، فيما أباد باروخ غولدشتاين 28 من المصلّين في ساحة المسجد الأقصى. كما أنّ ظاهرة الفِرَق والطوائف الدينيّة، خاصّة في شكلها القيامي والخلاصي، قد أفرزت من النزعات الانتحارية (الانتحار الجماعي لأتباع المعبد الذهبي...) ما أفرزته حركات العنف الإرهابية.

3- تجدر الإشارة إلى مثال جمعيّة البدناء الأمريكيّين التي تناضل لصالح جمعيّة (Dieting for Jesus). راجع:

B. Victor, op. cit.

حرب كونيّة أكثر منها حرب جغراسياسية

إنّ الانغراس الإيديولوجي والتاريخي في هذه الحركات الدينيّة يتنزّل في تاريخ طويل (التاريخ التوراتي، القرآني، الأسطوري)، وهذا من أجل تفسير أنّ هذا العالم يشهد الآن، مرحلة أخيرة لحرب ألفيّة، ومن أجل تفسير أنّ «انبعاثا» جديدا بصدد التكوّن، وأنّ منظورا خلاصيّا يعلن عن ذاته. لهذا، فإنّ أسامة بن لادن يرى أنّ قمع المسلمين قد وقع عليهم منذ اللحظة التي قُضِيَ فيها على الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال أتاتورك «أبو الأتراك» سنة 1924. أمّا كريستيان بوتلر، وهو من أهمّ منظّري «الهوية المسيحية»، فهو يتحدّث عن «الحرب بين أبناء قابيل وبين أبناء الله، وهذا منذ ستّة آلاف سنة». فالأصولية تبشّر بتصوّر للعالم متولّد عن نزعة أخلاقية متعالية أيّا كان مصدرها، سواء أكانت الشريعة التوراتيّة أم التشريع القرآني، بما يتخطّى أيّ تفسير سياسي للموضوع، فيُنظر إلى النظام الديني بوصفه أعلى مرتبة من النظام السياسي، وهذا في ذاته غير قابل للجدال.

ويستمدّ العنف مشروعيّته بادئ ذي بدء من الضرورة في حماية «الإيمان الحق»، وهذه الضرورة تلزم الدفاع على قيم أخلاقيّة لا يستطيع أيّ نظام آخر، عدا الدين، صونها وحمايتها، وأنّ الدولة العصرية العلمانيّة - سواء كانت أمريكية أو عربية اشتراكية أو عمّاليّة إسرائيليّة - لم تستطع الذود عنها، بل هي متّهمة بأنّها قد «اغتصبتها». وبما أنّ القيم الدينيّة التقليديّة ينظر إليها باعتبارها مستباحة، فإنّ العنف يصبح عندئذ عنفا مشروعا. فالخطاب الذي يدّعي معاقبة أمّة المؤمنين للآخرين هو ذاته الموجود في المستوطنات اليهودية في غزّة أو لدى حماس والحركات الإسلاميّة الأخرى، أو لدى الزعيم البروتستانتي الإيرلندي إيان بيسلاي، أو لدى أسامة بن لادن.

ويمكن أن نبرّر اللجوء إلى القوّة في أنّه يعصم من الاحتكام إليها بنسبة أكبر وأفظع. ولأجل ذلك، كانت دعوة جورج بوش الابن إلى خوض حرب الخير ضدّ الشرّ مبرّرا لإعلان الحرب ضدّ العراق؛ وذلك لدرء احتمال حرب تُشنّ على أمريكا بواسطة سلاح الدمار الشامل. أمّا الصهاينة المسيحيّون، فهم ينحازون إلى صفّ اليهود المتطرّفين أتباع مركز هراو من أجل طرد الفلسطينيّين من أراضيهم منعا لهجمات انتحارية محتملة.

إنّ إدانة الإرهاب هي إدانة شاملة ومتّفق عليها، ومع ذلك فهي قائمة على سردية جغراسياسيّة غاية في التبسيط. لذلك، فإنّ التنكيل بالمسلمين في بعض أصقاع العالم قد سمح بالخلط بين أوضاع المسلمين في الأراضي الفلسطينيّة وفي الشيشان وفي الفيليبين، وبين مسألة الحجاب في فرنسا، ممّا يحجب عنّا التساؤل عن أوضاعهم في تيمور الشرقية أو في جنوب السودان. ولوسائل الإعلام دور محوريّ في تمثيل دور

الشهيد؛ فأشكال العنف التي أضحت أمّة المؤمنين عرضة لها، أو هي التي تدعو إليها وتنادي بها، تمنح بُعدا كونيّا للصراع (مثل تلك الفيديوهات للعمليّات الانتحارية التي تذاع على المواقع الإسلامية). ومقابل ذلك، فإنّ الكذب الإعلامي التي تدّعي بعض الفرق أنّها ضحيّة له يسمح بتطوير أنموذج من الثقافة المضادّة وبعزل الأنصار والمريدين. وعلى هذا النحو، فإنّ المسيحيّين الإنجيليّين الأمريكان قد أيّدوا تأييدا كاملا الحرب في العراق فيما كانت التراتبيات الدينية التقليديّة معارضة لها. إنّ دور بعض الجماعات المهاجرة ودور نخبها مهمّ بوجه خاصّ؛ لأنّه يساعد على تحقيق ضرب من الصدى الأسطوري ونمط من الصلابة الهوويّة. فالخطابات الإسلامية التي يَتلفَّظ بها في هايد بارك يوم الأحد كلّ من أبي قتادة وأبي حمزة المصري، وكلاهما لاجئان سياسيّان في المملكة المتّحدة، وتلك الخطابات التي يلقيها بعض الدعاة في بعض المساجد المتطرّفة في أوروبّا، لا تترك مجالا للشكّ في الأسلوب الذي تُذاع به هذه الأسطورة أو تُستقبل به من الجموع.

إنّ ظاهرة «العرق الافتراضي» - التي تشهدها الميديا والفيديوهات ورسائل الإنترنت المتقاطعة - تهب ضربا من صيغ التضامن ومن التطرّف أكثر استدعاء للعنف، على الرغم من أنّ العنف مستبعد جغرافيا. وهكذا تسمح الراديكالية في الخطاب بخلق الإنسان من جديد وبأن يحيا حياة فُضلى. وهذا المعنى يثير بعض الجماعات الإسلامية في أفغانستان تحت حكم طالبان، وهو ينطبق أيضا على أجزاء من جماعات يهوديّة أمريكية أو فرنسيّة، تلك التي تجنّد نفسها في مناسبات العنف أكثر ممّا تجنّد نفسها في مناسبات السلام.

أمّا العدوّ، فهو شيطانيّ. إنّه الشيطان الأكبر (الولايات المتّحدة) والشيطان الأصغر (إسرائيل) للثورة الإيرانية، فيما يتّخذ «الشر» في خطابات جورج بوش وجه البابا بالنسبة إلى الأورانجيّين الإيرلنديين. إنّ هذه الإحالات تضع التراتبيات الدينيّة في موضع الحرج، وهو ما يفسّر مواقفها الغامضة فيما يتّصل بإدانة كلّ أشكال العنف، أو ما يتّصل بالاعتذارات الرسميّة النادرة. وبالنسبة إلى الإسلاميّين، فإنّ أمريكا هي العدوّ اللدود الكوني الذي يحلمون به؛ لأنّها في أعينهم سلطة مطلقة وحاملة لكلّ نوازع الشر وقيم الحداثة. فبما أنّها مخلوقة لتكون موجودة في كلّ مكان بفضل إعلامها ومخابراتها السرّيّة، فإنّ الولايات المتحدة تتناسب تناسبا كاملا مع هذه الأوصاف التي تلازم قوى الشرّ المتسرّبة في كلّ مجالات الحياة. ولمّا كان الانتصار على الولايات المتّحدة بوسائل أرضية مستحيلا، فإنّ للفعل الإرهابي قدرةً على أن يهزمها معنويّا. وفي مقابل ذلك، وبالنسبة إلى المحافظين الجدد، فإنّ تنظيم «القاعدة» قد أصبح عدوّا يُهاب جانبُه والرمز للشرّ المطلق و«العدوّ الأسطوري» كما أشار إلى ذلك الباحث ريشارد لوفربيار[4].

4- راجع: Richard Labévière, *Les coulisses de la terreur*, Paris, Grasset, 2003.

أمّا فيما يتّصل بنظريّة المؤامرة، فهي مستخدمة على نحو متواتر ومبرّرة بفضل كتابة تاريخية وجغراسياسية تخضع للزيادة والنقصان باستمرار: فالإسلاميون يتقاسمون أسطورة اللوبي اليهودي المتطرّف، في حين أنّ جزءا من أقصى اليمين المسيحي الأمريكي وطائفة **أوم** اليابانية والقاعدة - وقد أصبحت رمزا للشرّ المطلق في خطابات البيت الأبيض - قد أتت في التوقيت المناسب لتأخذ مكان العدوّ الذي تركه انهيار السلطة السوفياتية شاغرا. فما قيمة قوّة خلاصيّة من دون وجود قوّة أخرى تكافئها؟ وعلى نفس الصعيد، فإنّ منظّمة الأمم المتحدة هي أحيانا انبثاق لعالم شيطاني بالنسبة إلى المتطرّفين الإسلاميين وللمتطرّفين الأمريكان ولِعُتاة المتطرّفين اليهود.

إنّ الفعل العنيف والتاريخ يلقيان تأويلا دينيّا خالصا؛ فالنصر الخاطف في حرب الأيّام الستّة قد وقع تأويله لدى اليهود على أنّه آية من آيات الله، وهذا كان سببا لنشأة نوع آخر من «الصهيونيّة الخلاصيّة» تشرّع احتلال الأراضي بالقوّة. ولدى المسلمين الراديكاليين، فإنّ الهزيمة قد قُرِئت على أنّها آية من آيات الله في أنّ الزعماء العرب العلمانيّين قد كانوا حكّاما عاجزين، وأنّ العودة إلى الدين هي الكفيلة بهزم إسرائيل. أمّا لدى المسيحيّين الإنجيليّين الأمريكان، فإنّ الثورة الإيرانية وما رافقها من احتجاز للرهائن في السفارة الأمريكية في 11 سبتمبر 1979 (التاريخ /النذير) يمثّلان الحدث الصادم الذي نشأت من رحمه «الوطنيّة التوراتيّة»[5] التي يُعتبر جورج بوش الداعية إليها والمُبشِّر بها.

وتشتغل صيغ التطرّف الديني كما لو كانت مرايا يعكس بعضها البعض الآخر. فالحاخام مائير كاهين، والذي يُطلِق عليه اليهود صفة آية الله اليهودي يدعو في خطبه إلى إبادة الفلسطينيّين، وهو قد اغتيل على يد متطرّف مصري هو سيّد نصير في أمريكا سنة 1990. وقد طالب التنظيم الذي ينتسب إليه سيّد نصير بإطلاق سراحه سنة 1993 بمناسبة الهجمات التي طالت مركز التجارة العالمي سنة 1993. أمّا باروخ غولدشتاين، فقد ذاع صيته بعد قتله لمائير كاهانا لتبرير الهجوم الذي طال قبور الأبويين سنة 1994، وقد ردّت عليه حماس بالهجمات الانتحارية الأولى التي نفذّتها في سنة 1994. أمّا تيموتي ماكفيل، فقد برّر هجومه الدموي على مبنى أوكلاهوما سيتي بالثأر من الهجوم الذي طال جماعة الدافديين (الداوووديين) في واكو من قبل آف بي آي.

وبما أنّ الحرب هي صراع بين الخير والشرّ، فإنّ الحوار مع العدوّ غير مفكّر فيه إطلاقا. ولن يحسب الأمر على أنّه خطأ في التقدير السياسي، وإنّما خطيئة لا تغتفر لدى اليهود الأصوليّين، مثلما هو الشأن لدى متطرّفي حماس. فاليهود المتطرّفون يرفضون أيّ تنازل لأجل الفلسطينيين (وهو ما يدلّ عليه رفض مخطّط شارون في الانسحاب من قطاع غزّة من جانب المستوطنين)، وهم يدعون الجنود الإسرائيليّين إلى العصيان.

5- انظر: B. Victor, op. cit.

فالعدوّ الشيطاني لا مصير له سوى الإبادة الكاملة، والتفاوض معه يخلو من أيّ معنى. كما أنّ الغاية تبرّر الوسائل أيّا كانت هذه الوسائل: استخدام أسلحة الدمار الشامل، أو اغتيال أفراد يحملون على محمل الشريك لهذا العدوّ الشيطاني. ولا يُحسب للنصر النهائي حسابه بحسب الميزان البشري للأمور، وإنّما يُرى بوصفه نصرا يقينيّا حاملا في طيّاته بشائر الخلاص الجماعي بما يجعل من بعض التضحيات أمرا ضروريا. فأسامة بن لادن لا يسعى إلى بناء دولة إسلامية محض، وإنّما استعادة نظام الخلافة ووحدة الأمّة. وتظلّ أطول أزمة في الاتحاد الأوروبي هي أزمة إيرلندا الشمالية التي لا يزال يتعارض فيها الكاثوليك والبروتستانت منذ سنة 1968. وفيها لا يزال الأورانجيّون يحتفلون على نحو غاية في الاستفزاز بهزيمة مواطنيهم، فيما لايزال الجيش الجمهوري رافضا لنزع سلاح مقاتليه. وقد آلت جميع مسارات التفاوض إلى الفشل بينهما؛ لأنّ الحرب لا يمكن أن تنطفئ نارها إلاّ بإبادة أحد الطرفين للآخر.

إيديولوجيا العنف المشروع؟

إنّ كلّ الأديان التي واجهت منطق الحرب القائمة على الخير ضدّ الشرّ، قد صاغت بطريقتها «حربا عادلة»، ولا سيّما إذا كان المقصد الأسنى لديها هو الدفاع عن الإيمان، وذلك تحت مسمّيات مختلفة: الجهاد، الحروب الصليبيّة، الحروب التوراتية. فالجماعات الدينيّة المتشدّدة في كلّ الأديان المختلفة تنادي بإيديولوجيا العنف الخلاصي، وتستشهد بها من أجل التشهير بخاصّية الكفر لنظام الحكم المعادي لها بعبارات على قدر كبير من التشابه. كما أنّ الدعوة إلى «الحرب العادلة» تطال الاحتجاجات العنيفة ضدّ أنظمة الحكم السائدة. ولكن لا يجوز أن نقف عند حدود التعابير الإرهابية للراديكالية الدينيّة، وإنّما يجب، في هذا المقام، قبول العنف المشروع - لأنّه صادر عن الدولة - مثل الدعم الكبير الذي قدّمه كلّ المؤمنين من كلّ حدب لإعادة انتخاب جورج بوش الابن في الولايات المتحدة الأمريكية، ومثل العنف المسلّح الذي يمارسه المستوطنون في الأراضي الفلسطينية المحتلّة، فكلّ هذه الظواهر تنتسب إلى المسار ذاته. وفي هذا المنظور، تبدو آليّات صناعة العدوّ متقاربة بما يكفي فيما نجده لدى الإيديولوجيات الكليانيّة للمعابد الماركسيّة المختلفة، ومن بينها عبادة الزعيم الملهم، التماهي مع أعداء الخارج الذين يؤيّدهم «خونة» من الداخل، صيرورات «الوشاية - التطهير» المنتظمة، الصفوة الخرافية من المؤمنين على نهج ما كانت عليه العلاقة زمن «العمّال ضد الأعراف»... إلخ. فالعدوّ قد أصبح مشيطنا، من ذلك أنّ الكاثوليك - في نظر إيان باسلي - هم أرباب «المغالطة الشيطانيّة»، والتي تُنعت بأنّها «بابوية» في خطاب الأورانجيين. أمّا عن مضمون الخطاب، فلا

أثر فيه للتسامح، بل هو ذو طابع عنصري أو كاره للآخر على النهج الذي تبدّى لنا في فيلم مِيل غِيبْسون «مأساة المسيح»، أو لدى خطابات بعض الدعاة الإسلاميّين[6].

إنّ الإحساس بتملّك الحقيقة المخفيّة للأشياء يهب اليقين بالانتساب إلى جماعة «مصطفاة» تشرّع اللجوء إلى شكل جديد من أشكال العنصرية. فالآخر لا يقع تعريفه التعريف السياسي، وإنّما عبر صيغ وعبارات لا تخلو من التعميم: «الصليبيّون»، «المنافقون»، «البابويون»، «الأمريكان»... إلخ. إنّ التشدّد العنصري يعمد إلى تبسيط الخطاب وضبط الأهداف المعلنة، كما أنّه يبيح كل أنواع الخلط[7]. أَوَ لَمْ يقل الشيخ عمر بن عبد الرحمان - وهو الذي ألهم أنصاره بالهجوم على مركز التجارة العالمي - في معرض حديثه عن السياحة «بأنّ ديار المسلمين لا يمكن أن تكون موطنا للرذيلة للناس الآتين من كلّ حدب وصوب ولون؟». وأَلَمْ يصف مائير كاهانا العربَ - مستخدما العبارات نفسها تقريبا - بأنّهم «كلاب» أو «ذباب» يتوجّب قتلهم وإبادتهم بالنووي؟ أوَ لم يصف زعيم حركة حماس الشيخ أحمد ياسين، عبر خُطَبه سنة 1987، اليهودَ بأنّهم «من نسل القردة» وينبغي قتلهم أيضا؟[8]

إنّ خطابات الميليشيات الأورانجية والجماعات الإرهابية الكاثوليكية الإيرلنديّة ليست بأقلّ عنصرية من تلك الجماعات التي ذكرناها. أمّا الجماعات الأمريكية مثل «الجيش الأبيض للمقاومة» و«السلاح وسيف الله»، فهي لا تخفي علاقاتها العلنية مع بعض تلك الجماعات والتنظيمات الإرهابيّة.

كما أنّ «الخونة «من المنتسبين إلى الدين ذاته هم في دائرة الهجوم على نحو خاص، فهم «مؤمنون مزيّفون» و« منافقون» على حد تعبير النصوص الإسلاميّة. وهذا ما حدث مع إسحاق رابين الذي قتله ابن جلدته إيغال تمير، أو أنور السادات، وهو الذي كان في شبابه من أعضاء الإخوان المسلمين، فقد اغتاله أحد المتطرّفين المنتسبين إلى نفس دينه وملّته، أو الرئيس الباكستاني برويز مشرّف الذي هو حاليا عُرضة للاغتيال، أو الشيعة الذين يُنعتون بكونهم «أنصاف يهود» في أدبيّات أتباع أسامة بن لادن. ويمكن أن تكون أشكال العنف أشكالا جماعية أو من داخل الثقافات المحلّية، وهذا ما نراه بوضوح في الإسلام الباكستاني أو السعودي أو الإيراني أو في المسيحيّة الروانديّة أو الإيرلنديّة. ولعل بحث خَطّار أبو ذياب أكثر البحوث عمقا في تناول هذه الظاهرة في العراق اليوم.

6- راجع صحيفة (Le Monde) بتاريخ 30 أكتوبر 2004، ففيها أقوال منسوبة إلى أحد دعاة اتحاد المنظّمات الإسلاميّة بفرنسا (UOIF)، المدعوّ حسن لقيوسان.

7- يحسن التذكير في هذا السياق، بأنّ طائفة "أوم سينريكيا" معادية للسامية؛ لأنّها تتبنّى خطاب الراديكاليّة المسيحيّة، من قبيل مقالة "المؤامرة اليهوديّة". ومن ثمّ ترى أنّ اليهود الأمريكيّين، كي يحملوا واشنطن على خوض الحرب، وكي يحموا أمثالهم في أوروبّا من الإبادة، دفعوا الولايات المتّحدة إلى مهاجمة اليابان سنة 1941

8- إنّ مختلف الشواهد مأخوذة من:

Bruce Hoffman, *La mécanique terroriste*, Paris, Calmann-Lévy, 1999

وفي صميم هذا العنف، يبدو البعد الرمزي أهمّ من الهدف الاستراتيجي: فالعنف يبدو كما لو كان فعلا مطهّرا مثلما تتبدّى لنا أمثلة للقتل - في إيرلندا، والتي تمازجت مع بُعد شعائري أو تكاد - لأشخاص مجهولين (صلب / سحل، إبادة أُسَر بأكملها بما في ذلك الأطفال)، وفي الجزائر (ذبح شعائري طقوسي، إبادة جماعيّة). ويطال القتل أطبّاء ممن مارسوا الإجهاض بدعوى أنّ أتباع «الهويّة المسيحيّة» يرونهم قتلة للطفولة.

إنّ استراتيجية الإرهاب تعلم أنّه لا يمكن القضاء المبرم على العدوّ، ولذلك فإنّ الغزو العسكري لا يُطرح أمامها، بل يُعتبر البعد الرمزي للعمل العنيف ذاته هو الأهم. فغالبا ما لا تكون للهدف المقصود قيمة عسكرية كبرى؛ لأنّ ما يهمّ الإرهاب هو البعد الرمزي الخالص (الإشارة إلى البأس المعنوي الشديد للأنصار والأتباع) والبعد البسيكولوجي (الإشارة إلى ضعف العدوّ) والبعد الديني (الوعد بالجنّة)، ويهدف أيضا إلى نفي وجود العدوّ (ازدراء المنزلة الإنسانية للعدوّ)، التصدّي لأيّة عملية احتقار محتمل (يغدو الإرهابي شهيدا). فالمجاهد هو «من جند الله» لم تقع تهيئته إلاّ لهذا الفعل العنيف المعزول، ويحيط به أنفار ممّن لهم بعض التكوين العسكري التقليدي، ويؤمّهم إمام ذو مكانة كاريزماتيّة، ويكون وسيطا بينهم وبين الله.

أمّا الحيثيّات المكانية والزمانيّة للعمل العنيف، فهي ترتبط بالمرجعيات الدينية أكثر ممّا ترتبط بالمرجعيات الاستراتيجية. فتاريخ 19 أبريل بالنسبة إلى تموتي ماكفيل تاريخ مهمّ في فهم اعتداءات أوكلاهوما سيتي؛ لأنّه يرتبط بهجمات آف بي آي - وهي رمز القمع الفيدرالي - على الدافديين في واكو، ولكنّه أيضا تاريخ ثورة وطنيّي إنجلترا الجديدة ضدّ بريطانيا العظمى، كما أنّه يتزامن مع هجوم النازيين على غيتوهات اليهود في فرصوفيا ببولونيا. أمّا بالنسبة إلى الإسلاميين في الجزائر، فشهر رمضان يشهد لديهم تفاقما للعنف على الرغم من أنّه، نظريّا، لدى المسلمين هو شهر للهدنة والسلام. أمّا باروخ غولدشتاين، فقد اقترف مذبحة «تابوت البطارقة» بمناسبة عيد «بوريم» الذي يخلّد تحرّر اليهود من الأسر الفارسي.

هناك ثلاثة أشكال تميّز العنف ذا الأصول الدينيّة: الانتحار الجماعي، العمليّات الانتحارية والإرهاب الأعمى. ويظلّ الشكل الأوّل الأقلّ إضرارا على الرغم من أنّه طال 923 نفرا من أتباع المذاهب المختلفة في غويانا يوم 18 نونبر 1978 لأتباع معبد الشعب، وطال 60 نفرا من طائفة «داتو مانغانيون» في مدينة موناوو بفيلادلفيا يوم 19 سبتمبر 1985، وطال 70 نفرا من تنظيم «معبد الشمس» في فرنسا... إلخ[9].

لقد لوحظ تفاقم ظاهرة الهجمات الانتحارية منذ أن نشأت في سنة 1982، وإن كانت لا تتلبّس بالبعد الديني، ولكنّها مع ذلك تحمل مؤشرات عن تنامي العنف الديني. فإلى غاية أبريل 2000 أمكن إحصاء 275

9- راجع:

Jean-Marie Abgral, *Les sectes de l'Apocalypse. Gourous de l'an 2000*, Paris, Calmann-Lévy, 1999

حالة من هذا النوع. وفي السنوات الثلاث الأخيرة فقط (قبل 2004) أمكن إحصاء 267 حالة تقريبا[10]. إنّ سجلاّت الشهداء تضفي على المجاهدين ضربا من القداسة فيما تنزع عن الضحايا أو عن العدوّ أيّة صفة بشريّة: فالانتحاريّون الفلسطينيون يصوّرون أنفسهم قبيل العملية في أفلام تبثّ فيما بعد على نطاق واسع. والأسوأ من ذلك أنّ العمليّات الأخيرة في السعودية وفي أندونيسيا أو في إفريقيا الشرقيّة أصبحت تخلو من أيّة إحالة إلى أيّ بُعد جغراسياسي: فالتضحية أسطوريّة أكثر منها سياسيّة[11].

وأخيرا يبدو الإرهاب القيامي الممارَس على نطاق واسع متعارضا أو على الضدّ من الإرهاب السياسي الذي تظلّ علاماته مقروءة بوضوح، من أجل تجييش جزء مهم من الرأي العام نحو هذا الاتجاه أو ذاك. «فخاصّية الأعمال الإرهابية تحاكي، على نحو ما، الشعائر الدينيّة. وغالبا ما تكون الأهداف المعلنة لهذه الهجمات هي فضاءات عامّة يرتادها المدنيّون من عامّة الناس، ولا تشكّل أيّ خطر على الإرهابيّين. ولكن في رؤيتهم للعالم، فإنّ هؤلاء الضحايا هم حيوانات وفاسدون ورموز (للشرّ)[12]. فالمبنى الذي طالته هجمات ماكفيل لا يحتوي إلاّ على مبان ومكاتب اجتماعية ومحضنة للأطفال. أمّا الهجمات التي طالت مباني المُحَيّا في الرياض بالمملكة السعودية في الثامن من نونبر سنة 2003، فقد أصابت 19 جنسيّة، أغلبهم من بلدان الشرق الأوسط، ولا يوجد بين الضحايا أيّ شخص من البلدان الغربيّة. أمّا الهجوم على البيعة اليهودية في إسطنبول، فقد راح ضحيّته خمسة يهود أتراك من بين 19 ضحية (3). نشير في الأخير إلى أنّ الإرهاب الديني هو الأكثر رغبة في امتلاك أسلحة غير تقليديّة.[13]

لقد أعلن التطرّف الديني عن موت اللائكيّة والسياسة، تماما مثلما أعلن ميكائيل باخونين في آخر القرن التاسع عشر عن موت الإله. فقد أضحى الدين، ضمن أصقاع شتّى من العالم، معوّضا للسياسة؛ ذلك أنّ الجماعات الدينيّة تضفي الشرعيّة على العنف وتوفّر له سندا فكريّا وماديّا. وفي ضوء هذه المعطيات ألا يجدر بنا الشروع في إعادة قراءة دينيّة لبعض الأزمات التي قُرِنَت مدّة طويلة عبر شبكة المواجهة بين

10- انظر: (Pierre Conesa, «Aux origines des attentats suicide», Le Monde diplomatique, juin 2004). إنّ "أبطال" مثل هذه الاعتداءات الذين يبعدون عن أمثالهم بأشواط كبيرة هم جماعة التاميل الهندوس والمسيحيّين المعروفة باسم (Libération Tigres of Tamil Elam = LTTE)، فقد قام هؤلاء بحوالي 200 هجوم انتحاري في غضون 20 سنة. ولئن استعاروا هذا المبدأ من حزب الله اللبناني، فإنّهم أعادوا تفعيله في شكل هجمات جماعيّة، تضمّ ما بين 10 و15 انتحاريّا، موجّهة للجيش السيريلانكي. وقد استعمل عدد من الأحزاب السياسيّة اللائكيّة الطريقة ذاتها، مثل حزب العمّال الكردستاني (PKK) أو جماعة نمور التاميل (LTTE).

11- المرجع نفسه.

12- راجع:

Marc Jurgensmeyer, *Au nom de Dieu, ils tuent !: chrétiens, juifs, ou musulmans, ils revendiquent la violence*, Paris, Autrement, 2003, p. 123

13- انظر مثال طائفة "أوم سينريكيا" أو طائفة "راجينجيش" التي تعمّدت نشر وباء "السالمونيلا"، حتّى تؤثر على الانتخابات المحليّة لسنة 1984. وقد تسبّب الوباء في 751 حالة التهاب مَعَوي. وتمّ إيواء 45 حالة في المستشفيات، ولم يتمّ الإعلان عن أيّة حالة وفاة.

الشرق والغرب زمن الحرب الباردة؟[14] هذا هو ما ينشد مقال أرنولد لاتابي تحليله بقدر كبير من الضبط فيما يخصّ حالة يوغوسلافيا. إنّ الحرب الكونيّة على الإرهاب ينبغي، من أجل أن نوفّر في سبيل ذلك بعض الأمل في التوفيق، أن تكون حربا كونيّة على المتطرّفين الدينيّين.

14- ينبغي التذكير في هذا الصدد بأنّه خلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة وُصِف أحد المخيّمات، من طرف الصحافة الفرنسيّة، بكونه مخيّما "إسلاميّا تقدّميّا"؛ وذلك من أجل حمل المثقفين الباريسيّين على ترجيح مقالة أنّ المخيّم الذي كان مع الفلسطينيّين لا يمكن أن يكون بطبعه إلاّ "تقدّميّا".

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020